

عن الأثر العلمي للمترجمين العسكريين في البلدان المغربية المستعمرة: الجزائر نموذجاً

صورة مولوجي-فروجي^(2,1)

مقدمة

شكّلت الترجمة غداة الحملة الفرنسية على بلدان شمال إفريقيا أحد أهم الرهانات المَعُول عليها في عملية تحويل معالم الهوية المحلية عن توجهاتها المكتسبة والموروثة عبر التاريخ. فالترجمة من أهم القنوات التي تساهم في تمرير الكينونة الفكرية في شكلها المادي، وقد لعبت حينها أدواراً شتى تعدّدت بتعدّد الاستخدامات والغايات، وكانت وسيلة لاطّلاع الغرب على خصائص هذا المجتمع الدينية، التاريخية والثقافية.

وإذا كان المستعمر قد خاطب المستعمر في الجزائر لأول مرّة بلغته المحلية من خلال قناة الترجمة، فإنّ من أهله من انغمس بين السكان الأصليين وجاب الجبال والسهول مستقصياً أحوال العامّة من أصحاب الأرض والبلاد. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت الترجمة وسيلة اتصال وتواصل بين الإدارة الاستعمارية والأهالي في الجزائر، ولكن أيضاً في تونس عند فرض الحماية الفرنسية عليها العام 1881، وكذلك أثناء فرض الحماية على المغرب سنة 1912، لذا فقد أولت الإدارة الاستعمارية في هذه الأقطار المغربية

(1) Centre de Recherche en Anthropologie Sociale et Culturelle, 31 000, Oran, Algérie.

(2) Université d'Oran 1 Ahmed Benbella, Institut de Traduction, 31 000, Es Senia, Oran, Algérie.

المحتلّة أهمية كبيرة للترجمة والمترجمين الذين كانوا في الغالب عسكريين، خاصة في الجزائر.

وهكذا عرفت حركة الترجمة نشاطا مكثفا في مختلف مجالات الحياة العسكرية، والسياسية والقضائية، وصولا إلى مجالات الفنّ والمعرفة، وهو ما أفضى بالمستعمر إلى تحصيل ذخيرة هامة من الوثائق والمخطوطات التي انكبّ على ترجمتها، واعتمد عليها في صياغة أولى الكتب الاستشرافية حول الجزائر بالخصوص والبلدان المغاربية الأخرى على وجه العموم.¹

وعليه، نحاول من خلال هذا المقال تقصي خطى المترجمين العسكريين واستراتيجيتهم المحبوكّة في سبيل نجاح المشروع الاستعماري من جهة، ومن جهة أخرى نتساءل حول طبيعة تلك الترجمات، وأيضا الدراسات التي قام بها هؤلاء المترجمين وما أسفرت عنه من بناء معرفة استعمارية عالمية حول البلدان المغاربية المستعمرة على وجه العموم والجزائر بالخصوص.

تشكيل سلك المترجمين العسكريين بالجزائر

¹ نذكر من أهم المؤرخين الذين اهتموا بدراسة التاريخ الفكري والثقافي للجزائر أبو القاسم سعد الله، الذي خصص فصلا في مجموعته الموسومة بـ "التاريخ الثقافي في الجزائر" للحديث عن موضوع " الترجمة وظهور النخبة الإدماجية". وهو يشرح في الفصل الأول من هذا الكتاب أنّه عندما تأزّم الوضع بين الجزائر وفرنسا سنة 1827 وبدأ التفكير في الحملة ضد حكومة الداوي، ترجم الفرنسيون أعمال زملائهم الأوروبيين والأمريكيين عن الجزائر أيضا، مثل مؤلفات الدكتور شو والقنصل شيلر وغيرهم، كما لعبت مدرسة اللغات الشرقية دورا هاما آنذاك وكان على رأسها سيلفستر دي ساسي (1757-1838) الذي كتب أول بيان وزع على الجزائريين عشية الاحتلال وهو بيان كتب بلغة عربية دارجة طغت عليها اللهجة الشرقية بدلا من اللهجة الجزائرية. لأكثر تفاصيل ينظر:

أبو القاسم، سعد الله (1998)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، الجزء السادس، 1830-1954، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ص. 9.

يذكر شارل فيرو² في كتابه الذهبي³ أنّ صدور تصريح تشكيل أول مجموعة من المترجمين والمرشدين العسكريين بالجزائر كان في شهر جانفي من سنة 1830. فقد قامت آنذاك وزارة الحربية تحت إشراف الجنرال دي لوفردو (De Loverdo) بتكليف "دي كليرمونت تونار (De Clermont Tonner) بهذه المهمة، إضافة إلى إنشاء مكتب خاص لإنجاز خرائط ومخططات الأرياف. وإثر صدور هذا القرار تهافت المترجمون والمستشرقون على تقديم طلباتهم للالتحاق ببعثة شمال إفريقيا، وكان في طليعة هؤلاء المترجمين براسفيتش (Bracevich)، وهو أحد مترجمي بوناپرت (Bonaparte) في مصر. بالمقابل، أقدم سيلفستر دي ساي (Silvestre De Sacy) بتسجيل أحسن تلامذته⁴ في لائحة المترشحين لهذه البعثة.

كانت بعثة الجزائر ثالث مرة تحتاج فيها الحكومة الفرنسية لإجراء مسابقة للمترجمين بعدما أقدمت على ذلك لأول مرة بغرض الحملة الاستكشافية التي شنتها على مصر سنة 1798 بقيادة نابليون⁵، ثم أقدمت على إجراء مسابقة أخرى لتوظيف مترجمين

² ولد لوران شارل فيرو بمدينة نيس الفرنسية في 5 فيفري 1829. وبعد أن أتم دراسته بثنائية طولون انتقل إلى الجزائر سنة 1845 في سن تناهز السادس عشرة، حيث اشتغل في البداية كملحق في الإدارة المدنية الجزائرية بشرشال وذلك ابتداء من 20 ديسمبر من نفس السنة. وقد جعلته سرعة تعلمه للغة العربية واتقانه للهجات المحلية يدخل مصاف المترجمين العام 1848 لينتقل على إثر ذلك إلى مدينة بجاية ويصبح في 1 أوت 1850 مترجما عسكريا ملحقا بالقيادة العليا لمقاطعة بجاية ويحصل على رتبة مترجم الحكومة العسكرية العامة بالجزائر سنة 1872. بعدها استقر سنة 1876 في ليبيا، حيث تم تعيينه قنصلا في طرابلس بمرسوم مؤرخ في 7 نوفمبر 1878 وبقي هناك إلى غاية العام 1884، أولا بوصفه قنصلا، ثم قنصلا عاما، مع إشرافه على تحرير "الحواليات الطرابلسية". بعدها تمت ترقيةه إلى منصب ديبلوماسي هام بالمغرب الأقصى حيث انتقل إلى هناك في 4 نوفمبر 1884 وتوفي في 19 ديسمبر 1888. لتفاصيل أكثر ينظر:

El-Wafi, M. (1977), *Charles Féraud et la Libye, ou portrait d'un consul de France à Tripoli au XIX^{ème} siècle (1876-1884)*, Tripoli, éd. al-Farjani, p. 184.

³ Féraud, L.-Ch. (1876), *Les interprètes de l'armée d'Afrique* (archives du corps), Alger, Jourdan, Libraire-Editeur.

⁴ Voir Féraud, L.-Ch., *op.cit.*, p. 49.

⁵ حيث كان هذا الأخير يرى أنه في الجيش لا يمكن للمترجم إلا أن يكون عسكريا، في حالة الحرب كما في السلم، فمكانه موجود حيث يوجد القائد.

بغية الاحتلال العسكري للموريا (La Morée) العام 1828 بقيادة الملك شارل العاشر⁶. وكان بونايرت قد أقدم في الحملة الأولى (حملة مصر) على تشكيل هيئة من تسعة مستشرقين، والذين أطلق عليهم تسمية "مترجمو جيش مصر" وهم: جون ميشال فونتور دي باراديز (Jean Michel Venture de Paradis) (من أهم المقرئين للجنرال بونايرت)، ونائبه أميدي جوبارت (A. Jaubert)، وهما من تلامذة "بارون أنتوان سيلفستر دي ساسي"، أستاذ الاستشراق في مدرسة اللغات الشرقية الحية (أحد مؤسسي معهد مصر الذي أنشأه بونايرت في القاهرة في 20 أوت 1798)، إضافة إلى براسيفيتش (Bracevich)، دولايرت (Delaporte)، ماغالون (Magallon)، لوماكا (L'Homoca)، رايج (Raige)، بيليتست (Belleteste) ومارسيل (Marcel)⁷. أمّا فيما يخص التدخل الفرنسي في اليونان من أجل القضاء فيها على الاحتلال التركي والمصري، فقد قام الجنرال ميزو (Maison)، قائد البعثة المسماة بـ "حملة الموريا"، أيضا بتجنيد ضباط مترجمين ومستشرقين⁸. وقد بلغ العدد الإجمالي للمترجمين والمخبرين المترجمين الذين شاركوا في بعثة الجزائر ما يعادل خمسة وتسعون (95) عنصرا وهم يتصنفون درجات تتراوح بين الصف الأول والصف الثالث، منهم خمسة (05) ينتمون إلى الصف الأول، وثلاثة (03) إلى الصف الثاني، إضافة إلى سبعة (07) آخرين ينتمون إلى الصف الثالث، في حين قدر عدد المخبرين المترجمين بثمانية (08) ينتمون إلى الصف الأول واثنان وسبعون (72) إلى الصف الثاني، كما كان من بين هؤلاء المترجمين أربعة (04) ضباط سابقين خدموا في فترة المماليك⁹.

انتهت تحضيرات البعثة في أول ماي 1830 وتجمعت فرق الأقسام الثلاثة في تولون (Toulon) ومرسيليا (Marseille) منتظرة

⁶ Voir Féraud L.-Ch., *op.cit.*, p. 50.

⁷ Abribat (interprète commandant) (1931), *Notice sur les officiers interprètes*, Bourg imprimerie Victor Berthod, p. 3-4.

⁸ المرجع نفسه.

⁹ Féraud, L.-Ch. *op.cit.*, p. 50-57.

إشارة الانطلاق، وفعلا انطلقت فرق المستخدمين من المترجمين تحت قيادة الجنرال ديسبري (Desprès)، لتحطّ بشواطئ سيدي فرج في 14 جوان من السنة نفسها متقدمة بذلك وصول الجيش الفرنسي الذي كان في 5 جويلية 1830¹⁰.

وفي كل مرّة كانت هذه الخطوة، الضرورية والحاسمة تتصدّر قائمة أولويات العملية الاستطلاعية والخطّة الاستراتيجية المحبوكّة في سبيل غزو الميادين العلمية والعسكرية المستهدفة، ولا شك أنّ تكفل وزارة الحربية بتوظيف المترجمين وضمّهم إلى السلك العسكري أكبر دليل على الصبغة الاستعمارية للمهام الموكلة إليهم في الحملة الاستعمارية التي شنت ضد الجزائر، أو على الأقل هذا ما كانت تبدو عليه الأمور للوهلة الأولى وذلك قبل أن ينزاح بعضهم بمساره المهني إلى توجّهات وتطلّعات علمية أكثر منها عسكرية (حتى وإن كانت هذه، في أغلب الأحيان، تخدم تلك).

¹⁰ Ibid., p. 56.

الوظيفة والمهام

لم يكن الهدف المنشود حينذاك استقطاب وتوظيف مترجمين يتقنون اللغتين الفرنسية والعربية فحسب، وإنما أيضا تشكيل سلك من الإداريين الذين يجمعون بين معرفة القوانين الفرنسية وأعراف العرب وقوانينهم، فحدث وأن تبوّء العديد من هؤلاء المترجمين مناصب هامة على رأس مصالح حساسة مثل مصلحة الجمارك، الصحة، الميناء وغيرها من القطاعات¹¹، فقد تمّ تنصيب المترجم دوبينيوز (D'Aubignose) ملازما عاما (Lieutenant Général) على رأس الشرطة، كما ترأس جيراردا (Gérardin) مصلحة هامة تمثلت في مصلحة دومين الدولة (Domaines de l'Etat)، في حين أوكلت مهمة دراسة موارد وإيرادات البلد لأوسيب دي سال (Eusèbe de Salles)، كما تقلّد الضابط المترجم جون مिरونت (Jean Mirante) منصب مدير شؤون الأهالي في الحكومة العامة بالجزائر.¹²

ولدواعي استعمارية واستراتيجية، اتجهت هذه الحركة أكثر نحو النقل من العربية إلى الفرنسية في محاولة لمعرفة " الآخر " وإيجاد سبل للسيطرة عليه. وقد شارك في هذه المهمة عدد من المترجمين الذين كانوا في أغلبهم من عرب المشرق أو يهوده وبعض الفرنسيين المستشرقين، ومن أهمهم ذكر جورج غروي (G.Gaoué) (سوري)، جان شارل زكار (J.CH. Zaccar) (سوري)، أبرهام دنينوس (A.Daninos) (جزائري يحمل الجنسية الفرنسية)، جاني فرعون (J.Pharaon) وغيرهم كثير¹³، وهم في العموم مترجمون تفاوتت مراتبهم ومراكزهم الاجتماعية، السياسية والعسكرية، فمنهم من كان قاضيا ومنهم من كان طبيبا وارتقى على السلم العسكري درجات إلى أن صار جنرالاً¹⁴.

¹¹ Féraud, Ch., *op.cit.*, p. 58-59.

¹² Monsieur Abribat, *op.cit.*, p. 5.

¹³ أبو القاسم، سعد الله (1998)، سبق ذكره، ص. 145-147.

¹⁴ المرجع نفسه، ص. 152-153.

أما الترجمة من الفرنسية إلى العربية، فقد اجتهد فيها بعض الجزائريين من المترجمين الذين تعلموا الفرنسية وكانوا ينتمون إلى فرقة المترجمين الاحتياطيين ومن بينهم "ابن الفكون" و"علي بن محمد".

فبعد أن حققت الحملة الفرنسية غايتها في الهيمنة على الجزائر، أصبحت فرنسا أكثر من أي وقت مضى بحاجة إلى "وسطاء" يساعدونها على التغلغل في أعماق المجتمع والإحاطة بأحواله وظروفه. وأدرك الفرنسيون أن "عقريتهم" الفرنسية مهما بلغت لن تجدي نفعا أمام رداة وفشل الترجمة.

ولضمان الاستمرارية ومواصلة المهام التي اضطلعت بها هيئة مترجمي جيش إفريقيا التي تشكلت سنة 1830، صدر بتاريخ 3 نوفمبر 1845، وتছিذا في النشرة الرسمية للحكومة (رقم 125)، مرسوم وزاري يقضي بإنشاء سلك للمترجمين العسكريين الموجهين خصيصا إلى مصلحة الجزائر (Service de l'Algérie)، وبعد صدور قرار إنشاء وزارة خاصة بالجزائر والمستعمرات في 24 جوان 1858، وضعت ثلثة من أهم المترجمين تحت تصرف هذه الأخيرة¹⁵.

وسواء كانوا برلمانين (لويس غورت (Louis Goert)، إدوارد غيران (Edouard Guérin) ... وغيرهما، أو نواب عن قادة شؤون الأهالي، تمثلت مهامهم الأساسية في جمع الأخبار حول المناطق التي كانوا يجوبونها، والإصغاء إلى تقارير الجواسيس ومراقبة المقاطعات، كما أنهم كانوا يحررون المراسلات باللغة العربية، ويتبعون، حيث وجد، قائد الفرق العسكرية¹⁶.

وبعد مرور أكثر من مئة سنة على الاحتلال، لم ينتقص شيء من أهمية مهام ودور المترجمين العسكريين في تقريب الغايات والمبتغى، فظهرت إلى الوجود هيئة جديدة تأسست سنة 1938 عرفت باسم " هيئة الشؤون العسكرية الإسلامية " (Le Corps des

¹⁵ Monsieur Abribat, *op.cit.*, p. 6-7.

¹⁶ *Ibid.*, p. 9.

Affaires Militaires Musulmanes/AMM) وهي الهيئة التي قضت بإنشائها حكومة دلاديي (Daladier)، تحديدا في 14 جوان 1938، والتي لم تكن في الواقع سوى تغييرا لتسمية سلك المترجمين الضباط (Officiers interprètes) ومن ثمة كانت هذه الهيئة، التي ضمّت مختصين في اللغة العربية و العالم الإسلامي، بمثابة وريث رسمي لسلك مترجمي جيش مصر (1798) وجيش شمال إفريقيا (1830)، حيث كان لكل كتيبة " أندجينا " ضابط مترجم ينتمي إلى هيئة ضباط الشؤون العسكرية الإسلامية، يتقن اللغة العربية ويقوم بدور الوسيط بين القائد العسكري والأهالي¹⁷. النقيب روني كاستين (René Castaing) حكم هذه الهيئة إلى غاية 1940، ليخلفه الملازم فارنون شرافا (Fernand Charavin) في 21 ماي 1940، لتتحول هذه الهيئة سنة 1941 إلى سلك مدني، ثم إلى سلك عسكري من جديد سنة 1942 وتختفي تماما مع بداية القرن الماضي¹⁸.

أما في تونس والمغرب الأقصى، فلم تكن مهام هؤلاء المترجمين العسكريين تختلف كثيرا عنها في الجزائر. ففي تونس، وعندما أسست الحكومة الفرنسية نظام "الرقابة المدنية" (le contrôle civil) من خلال مرسوم 4 أكتوبر 1884، كان هؤلاء المترجمون أول من استعانت بهم الإدارة الفرنسية وأطلقت على الكثيرين منهم تسمية "المراقبين المدنيين"، في حين تربّع العديد من الضباط المترجمين على رأس مصالح هامة، ومُنح بعضهم لقب "مفتش حكومي". (Commissaire du Gouvernement) وقد

أصدر النقيب شافان (Capitaine Chavanne) قائمة من 85 مترجما عسكريا خدموا كلهم الإدارة الفرنسية في تونس بشكل أو بآخر وشغلوا مناصب سامية في مجالات مختلفة مثل إدارة الأموال، المحاكم الفرنسية... إلخ¹⁹.

¹⁷ Le Courrier des Blédards, *Bulletin de l'Amicale*, Bulletin de décembre 2014 (version Pdf). Téléchargé sur <http://18erta1940.free.fr/amicale18erta> en date du 02 mars 2015.

¹⁸ *Idem*.

¹⁹ Cf. Bendana, K. (2008), Traducteur en Tunisie aux XIX^{ème}- XX^{ème} siècles, « Le passage d'une condition a une profession », in *La ville, Rawafid*, Tunis, ISHMN, n° 13, p. 125-139, in <http://www.gremmo.mom.fr/pdf/conf1/Kmar02.pdf>

أما في المغرب، فقد فرضت الترجمة نفسها بإلحاح مع فرض الحماية على هذا البلد، إذ رافق المترجمون العسكريون الفرق الاستطلاعية وناخوا عن ضباط شؤون الأهالي في العديد من المناصب، كما عينوا رؤساء على الكثير من المصالح الهامة مثل مصلحة الجمارك ومصلحة العقارات²⁰.

التوجه البحثي "الاستكشافي" والأثر العلمي

بالرغم من أنّ غاية المترجمين كانت تكمن في نجاح "المشروع الاستعماري"، إلا أنّ الكثير من هؤلاء تحوّلوا إلى مدرّسين، مؤرخين، إثنوغرافيين وأنثربولوجيين بحيث ساهموا بقدر لا يستهان به في بناء مدونة عالمية²¹ ومعارف جديدة حول البلاد المغاربية المستعمرة بما فيها الجزائر.

لقد بلغ عدد المترجمين الذين كانوا موظفين من طرف وزارة الحربية الفرنسية سنة 1830 ما يعادل 69 مترجما²²، في حين بلغ

²⁰ Monsieur Abribat, *op.cit.*, p. 10-11.

²¹ فعلى سبيل المثال يعود الفضل في كتابة أول حوصلة تاريخية إلى رئيس بلدية قسنطينة والمترجم إرنست مارسسي (Ernest Mercier) الذي أصدر بباريس بين سنتي 1888-1890 مجلدين حول تاريخ شمال إفريقيا منذ أقدم العصور إلى غاية الغزو الفرنسي. ينظر فؤاد، صوفي (2010)، "التاريخ والذاكرة: الإيستوريوغرافيا الاستعمارية"، ترجمة صورية مولوجي-قروجي، دفاثر مجلة إنسانيات، العدد2، منشورات مركز البحث في الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية. كما أصدر أيضا إرنست، مارسسي (1903)، كتاب فن الترجمة: الترجمة الشفهية في الجزائر :

Mercier, E. (1903), *L'Art de la Traduction : l'interprétariat en Algérie*, éd. Adolphe Jourdan, 41 p.

²² إضافة إلى العديد من المترجمين المغاربة الذين وظفوا في تونس من طرف المترجم الأول برون دوبوقونس (Brun d'Aubignosc) وهو المبعوث لدى ماتيو دي ليسابس (Mathieu De Lesseps) المكلف بشؤون تونس. وكان أغلب هؤلاء المترجمين ينتمون إلى أسر مفاوضين يعيشون بإيالة تونس وهي من أصول فرنسية، مالطية، أو إيطالية نذكر من أهم هؤلاء المترجمين التونسيين مملوك الباي يوسف (Mamelouk du Bey). هذا، بالإضافة إلى قدماء تلامذة مدرسة اللغات الشرقية الذين تعلموا العربية في باريس على يد المبشرين المسيحيين الشرقيين الذين تم تجنيدهم أثناء بعثة مصر وكذا أبناء العائلات القنصلية التي كانت في خدمة فرنسا ينظر:

Messaoudi, A., « Renseigner, enseigner : les interprètes militaires et la constitution d'un premier corpus savant algérien (1830-1870) », *Revue d'histoire du XIX^e siècle* .

عدد المترجمين العسكريين الذين كانوا في الخدمة سنة 1876 ما يعادل 77 مترجما، نشر منهم 21 مترجما أعمالا عن الجزائر في مختلف مجالات العلوم والتخصصات²³.

ومن أهم الدراسات الاستطلاعية والاستكشافية ذات الطابع الأثنوغرافي التي قام بها هؤلاء المترجمين، تلك التي أقدم عليها مورييس بن حزيمة بطلب من الجنرال (لابرين) حول منطقة الطوارق- الهقار- حيث تعلم لهجة التماشق بالإضافة إلى معرفته باللغة العربية²⁴، وكذلك فعل دي صال (De Salles) من خلال مذكرته الموسومة بـ " ملامح فلسفية-إثنوغرافيا " (Linéaments de philosophie. Ethnographie) وهي دراسة استقصائية في تقاليد وأعراف الشعوب وخصائصها.

كما تمخضت المعرفة الواسعة للمترجمين العسكريين الذين جابوا ربوع المغرب الكبير عن إصدار عدة مؤلفات في التاريخ والجغرافيا والدين²⁵. ومن بين تلك المؤلفات نذكر الإخوان، عن الطرق الدينية الإسلامية في الجزائر (1859)²⁶ لمؤلفه شارل بروسلا (Charles Brosselard)، بالإضافة إلى كتب غورجو حول الجزائر مثل كتاب شرائح الجزائر السبعة (1891)²⁷ *Les sept plaies de l'Algérie*، وكتاب حالة الجزائر السياسية (1881)²⁸ *Situation politique de l'Algérie*.

ومن بين هؤلاء المترجمين الذين اهتموا بدراسة المغرب الأقصى والجزائر وجمع معارف حولهما حدّ سواء نذكر على سبيل المثال لا الحصر المترجم الرئيسي إسماعيل حامت (أو

(en ligne), 41/2010, mis en ligne de 30 décembre 2013.URL :

<http://rh19.revues.org/index4049.html>, p. 99.

²³ Messaoudi, A. *op.cit.*, p. 98-99.

²⁴ أبو القاسم، سعد الله، المرجع المذكور، ص. 167.

²⁵ مناصرية، يوسف (1982)، "دور المترجمين العسكريين في الجيش الفرنسي بالجزائر"، *مجلة التاريخ*، الجزائر، المركز الوطني للدراسات التاريخية، ص. 52-53.

²⁶ Les Khouan, de la constitution des Ordres musulmans.

²⁷ Gourgeot, F. (1891), *Les sept plaies de l'Algérie*, Alger, imprimerie Fontana et Cie.

²⁸ Gourgeot, F. (1881), *Situation politique de l'Algérie*, Paris, Challamel Aîné Éditeur.

حامد) (Ismaël, Hamet) الذي أصدر سنة 1901 بالجزائر كتابا عنوانه **خمسة أشهر في المغرب الأقصى**، *Cinq mois au Maroc*، إضافة إلى إسهامات أخرى منها **مسلمو شمال إفريقيا الفرنسيون**²⁹. كما أصدر ليون روش (Léon Roches) بين سنتي 1884-1885 بباريس كتابا بعنوان **اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام 1832-1864**، *Trente-deux ans à travers l'Islam 1832-1864* وهو بمثابة حوصلة لمختلف أعماله في الجزائر، تونس والمغرب والحجاز³⁰. وتعد الدراسة الإثنوغرافية التي قام بها المترجم العسكري شارل فيرو عن منطقة القبائل الشرقية من أهم الدراسات التي أنجزت حول هذه المنطقة، فقد اهتم بدراسة وتدوين عادات وتقاليد المنطقة وخاض في العديد من المسائل الخاصة بالذهنية الجزائرية عموما والقبائلية على وجه التحديد³¹ إضافة إلى العديد من الدراسات التاريخية الأخرى التي قام بها حول مدن الشرق الجزائري كمدينة القالة ومدن أخرى من الصحراء³².

وفي السياق نفسه كلفت وزارة الحربية مالشيور تيران (Melchior Tiran) بجمع الكتابات التي تحيل إلى هيمنة العرب بإسبانيا وكذلك الوثائق المتعلقة بالاحتلال الإسباني للسواحل الإفريقية، ليتّم تحويلها إلى الحكومة العامة في الجزائر، وفي هذا الإطار كتب

²⁹ Hamet, I. (1906), *Les Musulmans français du Nord de l'Afrique*, Paris, Librairie Armand Colin.

³⁰ مناصرية، يوسف، المرجع السابق، ص. 53.

³¹ العربي عقون، محمد (2013)، "الإثنوغرافيا الاستعمارية، شارل فيرو نموذجا"، *دفاتر مجلة إنسانيات، أنثربولوجيا المجتمعات المغاربية بين الماضي والحاضر*، مولوجي فروجي، صورية (تنسيق)، العدد 04، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثربولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، ص. 11-12.

³² مناصرية، يوسف، المرجع المذكور، ص. 53.

تيران "وثيقة حول وهران خلال فترة الاحتلال الإسباني" ³³ سنة 1847، مستفيدا بذلك من الرصيد الأرشيبي الذي تمّ جمعه. كما حظيت اللغة العربية وآدابها بقسط لا يستهان به من هذه الدراسات والترجمات حيث ألف بارون أنتوان سيلفستر دي ساسي وبأمر من الحاكم كتابا حول النحو العربي المعاصر ³⁵، نشر لأول مرة سنة 1810، بالإضافة إلى العديد من المؤلفات الأخرى في النحو العربي وفي أدب الاستشراق ³⁶. وبالفعل لعب المترجمون ³⁷ العسكريون في الحملة الاستطلاعية على الجزائر وغيرها من البلدان المغاربية، من خلال وظائفهم كوسطاء، وبفضل كفاءاتهم اللغوية والأدبية التي تقتضيها طبيعة مهامهم وكذلك قربهم من مختلف الجماعات، دورا هاما في التبادل بين المستعمرين والمستعمرين، وفي بناء أول "معرفة استعمارية عالمية حول الجزائر"، وبالأخص في الفترة الممتدة بين 1830 و1870، حيث أنه وفي هذه السنة الأخيرة (1870)، تمّ تهميش هذا

³³ Tiran, M. (1847), *Notice sur Oran pendant l'occupation espagnole*, Paris, Archives du Ministère de la Guerre.

³⁴ بن قادة، صادق (2013)، "معارف عسكرية وحداثة عمرانية كولونيالية. دور المهندسين العسكريين في تغيير المدن الجزائرية، مدينة وهران نموذجا (1831-1870)"، ترجمة صورية مولوجي قروجي، *دفاتر مجلة إنسانيات*، العدد 04، وهران، الجزائر، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، ص. 57.

³⁵ « Grammaire arabe à l'usage des élèves de l'École Spéciale des Langues Orientales Vivantes : avec figures », 2 volumes, Paris, 1810; 2^{ème} édition 1831.

³⁶ نذكر على سبيل المثال مؤلفين له في هذين التخصصين:

Principes de Grammaire générale, mis à la portée des enfants, et propres à servir d'introduction à l'étude de toutes les langues, Paris, 1799.

Mémoires d'histoire et de littérature orientales, Paris, 1818 .

³⁷ العديد من هؤلاء المترجمين مجهولون، خاصة المدنيين منهم، حيث لا يسمح الأرشييف الموجود ب أوترمار (Outre-Mer) بإحصائهم ولا يمكن القيام بذلك إلا نسبيا اعتمادا على الأرشييف الموجود بالجزائر. أما العسكريين منهم فقد خصص لهم المترجم العسكري شارل فيرو كتابه الذهبي الذي يحمل عنوان **مترجموا جيش إفريقيا** والصادر سنة 1876 والمذكور أعلاه:

Féraud, Ch. (1876), *les interprètes de l'armée d'Afrique*, Alger, Jourdan, Libraire-Editeur.

النوع من الأبحاث والدراسات لتحلّ محلها تدريجيا العلوم الجامعية والدراسات الأكاديمية³⁸.

بالمقابل، زاد انضمام المترجمين العسكريين إلى الجمعيات العالمية « Sociétés savantes » من انتعاش نشاطهم البحثي وهياً لهم ظروف الإنتاج والنشر بشكل يسمح بعرض أعمالهم وإخراجها إلى النور من خلال المجلات العلمية الصادرة عن هذه الجمعيات. ونذكر من بين هذه الجمعيات "الجمعية الآسيوية" التي تأسست بباريس سنة 1822 لتطوير الدراسات الشرقية و"الجمعية الأركيولوجية" التي تأسست بقسنطينة سنة 1852 و"الجمعية التاريخية الجزائرية" التي نشأت سنة 1856 وشارك في تأسيسها المترجم الرئيسي "ويليام ماك غوكان دي سلان" (William Mac-Guckin De Slane) الذي ترجم **البكري** (Description de l'Afrique septentrionale)، والجزء الثالث من **كتاب العبر** لابن خلدون. بالإضافة إلى **المجلة الإفريقية** الصادرة عن الجمعية التاريخية الجزائرية، وكان من بين المترجمين الذين ساهموا في تأسيس هذه المجلة "مارسولا نبوسي" (1821-1873)، هنري فدرمان (1823-1872)، أونطوان أرنو (1835-1910) ... وغيرهم، حيث أقدم جميعهم على تصنيف ونشر وثائق تشكل عناصر رئيسية في التأريخ المستقبلي للجزائر، سواء عن الحقبة القديمة بما فيها فترة ما قبل التاريخ، أو الفترة الإسلامية³⁹. وبطبيعة الحال، لا يمكن إغفال الحديث عن مجلة **الحوليات الجزائرية** التي أشرف على الأجزاء الصادرة منها سنة 1836 (جزئين)، 1839 (ثلاثة أجزاء) و1854 (ثلاثة أجزاء) المؤرخ الكاتب والمترجم بيليسي دي رينو (1798-1858) (Pellissier de Reynaud) الذي قام سنة 1845 بإصدار ترجمة مؤلف **تاريخ تونس للقيرواني**، وذلك بمعية م.دي ريموسه (M.de Rémusat)⁴⁰.

³⁸ Voir, Messaoudi, A., *op.cit.*

³⁹ Cf. *Dictionnaire des Orientalistes de langue française* (2009), Paris, IISMM, Karthala.

⁴⁰ <http://www.algerie-ancienne.com/livres/annales/annales.htm> (archive).

وقد أولى بيليسي أهمية كبيرة لجمع الوثائق الأرشيفية والخرائطية والبحث العميق عن تاريخ تحصينات وهران وماضيها العسكري⁴¹ كما أنه لا يمكن إغفال دور هؤلاء المترجمين العسكريين أو البعض منهم في إنتاج ونشر معاجم وقواميس مثل القاموس الشهير لـ "فرانسوا-لويس-مارسيلين بوسي" (1821-1873) (François-Louis-Marcelin Beausier) والموسوم بـ **القاموس التطبيقي**

عربي-فرنسي⁴² الصادر في الجزائر العام 1871. ولم يكن دور المترجمين العسكريين ذوي الأصول الجزائرية أقل أهمية عن غيرهم من المترجمين العسكريين، وذلك بغض النظر عن دور العسكري أو المناصب الإدارية التي تقلدوها، ومن أهم هؤلاء الذين يثني عليهم في كتابه نذكر "خوجة سي أحمد البدوي"، "أمين اللغة العربية" على حدّ تعبير صاحب الكتاب، وقد كان خوجة قد تخرّج بجدارة من "المسجد الكبير" بالجزائر وعمل موظفا بالحكومة، وبمجرد وصول الكولونيل "دوما" (Daumas) مدير الشؤون العربية إلى الجزائر، تعرّف خوجة على الماريشال بيجو الذي عينه سكرتيرا للمترجم الرئيسي م. روش (M. Roches)، وبقي في الفترة التي احتدمت فيها الحرب بين 1854 و1857 في المنطقة الكبرى برفقة العديد من المترجمين الرئيسيين إلى أن أنشأت الحكومة الجريدة الناطقة باللغة العربية "المبشر" (Mobacher)، التي حاولت من خلالها تمرير الأفكار التحضيرية الفرنسية إلى الأهالي. وهكذا، شارك خوجة سي أحمد البدوي بصفة فعالة في هذه الجريدة عبر كتابات ومقالات تنمّ عن قدراته اللغوية وكفاءاته الفكرية، وذلك دون الإخلال أو المساس بالمعتقدات الدينية المحلية أو العرقية⁴³.

⁴¹ بن قادة، صادق، المرجع المذكور، ص. 55.

⁴² Beaussier, M. (1871), *Dictionnaire pratique arabe-français*, Alger, Bouyer, (XII-764-XVI P).

⁴³ Féraud, Ch., *op.cit.*, p. 399-400.

و على غرار غيره من المترجمين شارك هذا المترجم في عمل جبار ذو صبغة تاريخية وأدبية تمثل في جمع ونقل، على مستوى كافة التراب الجزائري، الأغاني، الأشعار الشعبية، القصص والحكايا وحتى المدائح الدينية والتهاليل التي تردّد في تخليد مآثر الموتى وعليه، تمّ تحويل موروث شعبي شفاهي إلى موروث كتابي ورصيد شعبي مخطوط ومدون⁴⁴.

ومع دخول الجيش الفرنسي المغرب العام 1912، أمر المقيم الفرنسي العام الجنرال ليوطي بإنشاء " المدرسة العليا للترجمة" وأولكت لهذه المدرسة مهام تخريج مترجمين وتراجم وسطاء بين الحكام والأهالي في المدن والأرياف⁴⁵. كما عرفت تونس المعاصرة رقيا ثقافيا وسياسيا كبيرا بفضل مجهودات المترجمين العسكريين في بناء وخلق ازدواجية لغوية إدارية وسياسية وفي إعطاء دفع للثقافة والكتابة بتونس، وكذلك للصحافة والتعليم⁴⁶. أسس أحمد باي، باي تونس (1837-1855) بعد عودته من أوروبا مدرسة باردو (L'Ecole de Bardo) العسكرية سنة 1840، وحتى إن لم تكن هذه المدرسة متخصصة في الترجمة، فقد أشرف أساتذتها على نقل العديد من الكتب عن لغات أوروبية إلى اللغة العربية كما لعبت هذه المدرسة دورا كبيرا في ترسيخ تعليم العلوم واللغات الأجنبية على غرار مدرسة إيسكي-ساري (Eski-Saray) وهي مدرسة عسكرية تركية، وكان لها دورا لا يستهان به في مجال الترجمة وإنتاج المؤلفات المترجمة والتي بلغ عددها ما يقارب أربعين مؤلفا، خاصة عن الفرنسية، الإيطالية والتركية تحت إشراف المستشرق الإيطالي كاليغاري (Calligaris) (1808-1871) والتونسي محمود قابادو (Mahmoud Qabadou) (1813-1871) بمساعدة مجموعة

⁴⁴ Idem.

⁴⁵ القاسمي، علي (2010)، "الترجمة في الوطن العربي (المغرب العربي نموذجا)"، دراسات في النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان ناشرون، ص. 29-30.

⁴⁶ Bendana, K. (2008), « Traducteur en Tunisie aux XIX^{ème}-XX^{ème} siècles : le passage d'une condition à une profession » Rawafid n° 13, Tunis, ISHMN, p. 125-139, in <http://www.gremmo.mom.fr/pdf/conf1/Kmar02.pdf>

من المترجمين الضباط ومن بينهم الإنجليزي "دلكاس" (Delcasse) والفرنسي بيرري (Perrier)، والإيطالي ترواني (Troani)، ولكن ولسوء الحظ ما قُتلت هذه المدرسة التي شجعت كثيرا على الترجمة أن أغلقت أبوابها نهائيا العام 1869⁴⁷.

خاتمة

يمكن القول أن مهمة المترجمين الإثنوغرافيين اتسمت بالازدواجية، فمن جهة، عملوا على تهيئة الأرضية أمام الغزو الاستعماري وتوفير المعطيات الميدانية اللازمة للمستعمر في سبيل نجاح مشروعه الاستعماري، ومن جهة أخرى، عملوا على جمع معارف علمية هامة حول البلدان المغاربية ونشروا الكثير منها في شكل كتب ومؤلفات حاملة لمشاريع حديثة. وبفضل إسهاماتهم في مختلف الميادين (الآثار، التاريخ، الجغرافيا... إلخ) تمخض في الجزائر وبفضل المكتب العربي عن إنتاج ونشر أربعين مجلدا بين 1844-1867، والشيء نفسه بالنسبة للمغرب، حيث نشرت سلسلة "مدن وقبائل المغرب" (1915-1932)، ومثل ذلك فعل الإيطاليون أيضا في ليبيا ولكن بشكل أقل مستوى⁴⁸. و هي مفارقة تحيل إلى إعادة قراءة الموروث المعرفي للمترجمين العسكريين وفق السياقات التاريخية المختلفة التي أوجدت هذا الشكل من المعرفة، وإعادة تحليلها في سياق رهانات الحاضر.

⁴⁷ Ghrab, S. (2009), « L'Expérience tunisienne en matière de traduction », in la Revue Sadikienne, n° 52, Novembre, Tunisie, Association des anciens élèves du Collège Sadiki, Tunis, p. 18.

⁴⁸ بونت، بيار وإيزار، ميشال (2006)، معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، الجزائر، المعهد العالي العربي للترجمة، بيروت مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص. 136.